

المحاضرة السابعة: التدوين التاريخي في الحضارات القديمة

• أولاً: الحضارات الشرقية القديمة

كان التاريخ ولأزال معرفة ملازمة لفكر الانسان وطبيعته وقد مرت هذه الصلة الوثيقة بين الانسان والتاريخ بمراحل متعددة، تطورت خلالها تلك المعرفة البدائية مع الطبيعة الانسانية من صورتها الشفاهية الحسية الى فضاء رحب بلغ فيه التاريخ سمو العلم، وارتقى معه الفكر التاريخي ليلتحم بالفكر الفلسفي ساعياً لحل كل مشاكل التاريخ كعلم، بل مشاكل الانسانية. كما حلم بذلك بعض الفلاسفة المعاصرين من خلال فلسفة التاريخ.

يتناول الفصل الحالي تتبع المراحل التي مر بها علم التاريخ منذ ان بدأ رواية شفوية الى معرفة مرتبطة باللاهوت ركزت خلال تلك المرحلة موضوعاته على المثل والأخلاق والماورائية ثم مادة مهمة وحقل غني للفلسفة ومطاراتهم العقلية الى تدوينه وفقاً لمناهج متعددة وعلماء له اصوله وقواعده، لاسيما بعد ظهور مدارس متعددة.

تعد الرواية الشفوية الصورة البدائية الاولى للتاريخ كمعرفة قبل ان تعرف الكتابة، فقد كان الانسان يقص على ابناؤه واحفاده او سواهم قصص اسلافه ممتزجة بالاساطير بهدف الحكمة والموعظة في اغلب الاحيان، وذلك قبل ان يتدرج التاريخ في الرقي ويمتزج بعد مرحلة الرواية الشفوية بعناصر فنية كالرسم والنقش وغير ذلك مما يدخل اليوم في عداد الآثار التي تكون مصدراً من مصادر التاريخ، ثم بلغ مرحلة التدوين بعد اكتشاف الكتابة في بلاد ما بين النهرين حوالي سنة ٣٣٠٠ ق.م، ثم في مصر حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م، ثم الصين ولعل ما يفسر التلازم بين الانسان والتاريخ الشفوي هو تميز الانسان باللغة التي استطاع بواسطتها التفاهم مع الآخرين من بني جنسه وينقل لهم من خلالها خبراته وتجاربه في الحياة، ومنها بالضرورة احداث الماضي.

قبل الانتقال الى مرحلة التدوين كانت هنالك مرحلة انتقالية تمثلت بالنقوش والرسوم التي تركها الانسان في عصر فجر السلالات على الاحجار والجدران لتشير الى اعمال الملوك كبناء القصور والمعابد ومغامراتهم في رحلات الصيد، ثم جاءت الكتابة لتكون حداً فاصلاً بين حقبتين اكتسبت

اللاحقة منهما اسمها فيما بعد من التاريخ المكتوب فعرفت بعصور التاريخ "العصور التاريخية" التي يقدر عمرها بخمسة الاف سنة.

اتخذت كتابة التاريخ او عملية التدوين التاريخي اشكالا متعددة في الحضارات البشرية الاولى وفي مقدمتها حضارة بلاد ما بين النهرين التي ابتدع سكانها قبل غيرهم الكتابة المسمارية التي كانت تمثل لغة المخاطبات الدبلوماسية في العالم القديم، والحضارة المصرية التي ابتكرت الكتابة (الهيروغليفية). وكان التدوين التاريخي في هاتين الحضارتين خاصة متشابهاً من حيث مواضيعه واساليبه وأغراضه، بأستثناء المادة التي استخدمت في عملية التدوين فقد استخدمت اللوح الطينية في بلاد ما بين النهرين واوراق البردي في مصر.

ويمكن تقسيم المدونات التاريخية على وفق ذلك الى اقسام متعددة اهمها:

١. قوائم الملوك والسلالات الحاكمة: من بينها قوائم الملوك السومريين التي تعد اقدم اشكال المدونات التاريخية التي وصلت الينا، وتعود اقدم قوائم الملوك المدونة في بلاد ما بين النهرين الى سلالة اور الثالثة وتحوي هذه القوائم على معلومات تاريخية مهمة كمدة حكم الملوك، وبدايات العصر التاريخي في هذه البلاد، واسماء اصحاب المناصب الرسمية، واخبار الحملات الحربية، وقد اعتمد مدوني هذه القوائم على معلومات من وثائق تاريخية مكتوبة كانت غالباً ما تحفظ في المعابد والاماكن الرسمية المخصصة لحفظها، ثم توسعت المعلومات فشملت تاريخ العلاقات السياسية بين دولتين وسمي هذا الاسلوب في تدوين التاريخ السياسي لدولتين متعاصرتين بـ (تاريخ حدث في وقت واحد).

٢. التواريخ: وهي تسجيل للحوادث المهمة على وفق تسلسلها الزمني، وقد عرفه فضلاً عن البابليين والاشوريين مدونو التاريخ المصريون والعبرانيون، وغالباً ما كانت تنظم التواريخ بطريقة حولية، فتذكر فيها حوادث كل سنة لوحدها، ثم ينتقل المؤرخ الى السنة التي تليها، وكانت تحفظ في المعابد، ووردت فيها معلومات تخص الحملات الحربية والكوارث والابوة والاسعار وظهور المذنبات... الخ. ثم اتخذ التدوين في بلاد بابل وأشور في منتصف

القرن الاول قبل الميلاد ابعاداً فكرية اقرب الى المفهوم العلمي الحالي منه الى التاريخ،
لما اتصف به من تنظيم وتسلسل منطقي وتحليل للحوادث.

كتب الكاهن البابلي بيروسوس في القرن ٣ ق.م أول كتاب في التاريخ في عهد الملك السلوقي
انطيخوس الاول (٢٧٩-٢١١ ق.م)، تكون من ثلاثة اجزاء تحدث فيها عن بلاد ما بين النهرين
منذ الخلقية والطوفان حتى فتح الاسكندر لبابل واسماه (بلاد بابل)، كما شهد هذا القرن أي
الثالث قبل الميلاد ظهور حوليات الكائن المصري (مانيثون) الذي دون باليونانية الاسر التي
حكمت مصر وقسمها الى ٣١ اسرة، وكذلك ظهرت اسفار تاريخ ملوك اسرائيل ويهوذا، وعت
اسفار التوراة من المدونات التاريخية القديمة التي كتبت في حوالي (٥٧٥ ق.م) وهي سفر الملوك
الاول والثاني وقبلها في حدود سنة (٩٠٠ ق.م) ظهرت الاجزاء اليهودية من العهد القديم التي
تشتمل على اسفار موسى الخمسة ويشوع وصموئيل.

ومما سبق يمكن القول بان هناك سمات مشتركة تجمع بين المدونات البابلية والاشورية
والمصرية تتمثل بـ:

١. ذكرها لحوادث غريبة وخارقة للعادة كظهور مذنبات سماوية وولادة حيوانات مشوهة خلقياً
والرعاية الالهية للبشر.
٢. عدم اهتمام مدوني التاريخ بالاشارة الى المصادر التي استقوا منها مادتهم التاريخية، وعدم
اهتمامهم بدقة المعلومات التي يقومون بتسجيلها، وربما يعود السبب الى احترامهم للنصوص
القديمة التي عدت شيئاً مقدساً.
٣. تضمنت مديحا للملوك وتعظيماً لهم مما قلل من موضوعيتها.
٤. طغت النزعة الدينية على المدونات التاريخية القديمة مما ارجع حوادث الماضي عند تفسيرها
الى القدرية والماورائية وارادة الالهة، أي نظرت الى اعمال الانسان على انها جهود الالهة
وليست من جهود الانسان.
٥. أن ملامح الوعي التاريخي لم تكن قد بلغت في معظم تلك الكتابات التاريخية درجة النضوج
ولم تظهر امتلاكهم للفكر التاريخي بأستثناء كتابات العبرانيين الذين كانت كتاباتهم تمتلك

تصورات مستمدة من الفكر الديني لعقيدهم ذات الاصل السماوي وتتمثل بمسيرة التاريخ البشري وحركة الانسان على الأرض.

• الحضارة اليونانية الرومانية

أ- التدوين التاريخي في الحضارة اليونانية:

تعود بواكير الوعي التاريخي لدى اليونان الى القرن التاسع قبل الميلاد حيث ارتبط بعناصر أدبية ملحمة لم تزل شفوية تتمثل بملحمة الالياذة والاولديسة اللتين ظهرتا في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ونسبتا الى الشاعر (هوميروس) وهي تتحدث عن الحرب بين الاغريق وطروادة، وظل تداول هذه الملحمة شفويةً حتى القرن السادس ق.م، عندما دونت لأول مرة.

مثل توسع اليونان على سواحل البحرين الاسود والابيض المتوسط آنذاك واتساع مجالات اتصال اليونان بالحضارات الاخرى عاملاً من عوامل اهتمامهم بالتاريخ وتطلعهم نحو معرفة الشعوب التي احتكوا بها لاسيما الفرس. وقد أثر هذا الاتصال الحضاري في الفكر التاريخي اليوناني واذ وصفه توينبي (انه كان بتأثير الاتصال بمجتمعات غير هليينية).

كان هناك عامل اخر دعا اليونان للاهتمام بالتاريخ وهو رغبتهم في الاستطلاع والتحري عن اصل الاشياء والبحث في عللها واسبابها ومنها حوادث الماضي واسرار الكون والرغبة في التعرف على البلاد الاخرى وهو ما حفزهم على السفر اليها لدراستها والتعرف على ماضيها فكان هذا منطلق التاريخ عندهم. يعد هيكاتيوس رائد الكتابة التاريخية عند اليونان وكان جغرافياً زار بلدنا كثيرة والى كتاباً اسماه (خريطة العالم) وهو كتاباً في الجغرافية الطبيعية والبشرية كما تضمن معلومات تاريخية تخص وطنه ايونيا وبلداناً اخرى اهمها بلاد فارس واشور، ومن اهم مميزات الكتابة التاريخية لهيكاتيوس:

١. وجود العديد من الأخطاء، رغم الروح العلمية المتمثلة بتحري صحة الاخبار التي نقلها لوجود الكثير من الاساطير عند اليونان آنذاك.
٢. كتب اعماله الفكرية والادبية بالنثر وليس بالشعر كما كان سائد آنذاك.

٣. يعد مؤسس الكتابة التاريخية عند اليونان لأنها تحررت بعده من قيود الشعر.

ظلت الكتابة عند اليونان قصة تتعلق بوصف الشعوب والبلدان اي التركيز على الجغرافية البشرية والطبيعية حتى جاء هيرودوتس الذي نقل الكتابة التاريخية الى اسس علمية اطلق عليها اسم التاريخ وقصد به البحث والاستقصاء عن حوادث الماضي والكشف عنها وعدم الاقتصار على القصص وما فيها من اساطير وخرافات كما كان يفعل السابقين من قبل لذلك لقب بابو التاريخ وهو لقب لم ينازعه احد عليه.

حصل هيرودوتس على مادته من خلال اسفاره بين البلدان فوصف الشعوب والبلدان التي زارها، ولكن موضوعه الاساسي كان النزاع بين اليونان والفرس الذي هو صراع حضاري بين الشرق والغرب، وعن طريق النقاش والتحليل حول التاريخ الى علماً يقيناً على الرغم من معارضة الاغريق للاتجاه العلمي في ذلك الوقت، فالتاريخ في رأي هيرودوتس: هو دراسة اجتماعية بعيدة عن الاساطير والتفسيرات التي تنسب الاحداث الى الالهة فهو وصف موضوعي لاعمال الرجال، إلا ان كتابه لم يخلو من الاساطير والخرافات التي كانت سائدة في الفكر اليوناني، ومن اهم مميزات الكتابة التاريخية لدى هيرودوتس:

١. موضوعية العمل التاريخي في جوانب عدة.

٢. اعتماده على عدد من المصادر.

٣. مشاهداته وما سمعه من الاخرين مثلت جانباً من معلوماته.

٤. انصف الفرس على الرغم من انهم اعداء لليونان.

اهم سمات التدوين التاريخي عند اليونان في النصف الثاني من القرن (٦ ق.م):

١. ادرك المؤرخون اليونانيون منذ عهد هيرودوتس ان دراسة التاريخ ممكن ان تكون على اسس علمية اذا كانت تستند الى البحث والاستقصاء، وهذا ما اراده هيرودوتس من ابتكاره لكلمة (تاريخ) واستعماله لها بدلاً من كلمة حكاية التي كانت تشير الى أحداث الماضي.

٢. أن التقدم الذي احرزه التاريخ منذ عهد هيرودوتس تعود جذوره الى عهد مبكر بدأت خلاله ملامح الفكر التاريخي اليوناني بالتشكيل وهو عهد هوميروس بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. وعاش الفكر اليوناني لقرون طويلة أثر خلالها على المؤرخين، لاسيما الرومان وانتهى حينما اصبح الانجيل في مطلع القرن السابع الميلادي خلال حكم الامبراطور هرقل الكتاب الاول لدى المثقفين الناطقين باليونانية والكاتبين بها.
٣. حاول الكثير من المؤرخين اليونان تمثل فكرة التاريخ العام واستحضارها في كتاباتهم التاريخية، رغم انها كانت تتناول موضوعاً محدداً فالتعرف على حقيقة تاريخ معين يستلزم استعراض التاريخ بأكمله، وهذا ما نلاحظه في تواريخ العديد من المؤرخين اليونان، لاسيما التاريخ الذي دونه هيرودوتس وبوليبيوس.
٤. ان نقد روايات التاريخ وتحليل حوادثه والبحث عن اسبابها وعللها سمة مشتركة لكثير من مؤرخي اليونان.
٥. ان معظم الكتابات التاريخية اليونانية تختص بالجانب العسكري الذي عنى بتفاصيل المعارك وسير وقائعها، وقد توينبي هذا الجانب الذي ركز عليه المؤرخون اليونان بأربعة اخماس الكتابات التاريخية اليونانية التي وصلتنا.

ب- التدوين التاريخي عند الرومان:

تأثر التدوين التاريخي الروماني فكراً وتدويناً بالفكر اليوناني ويعد امتداداً له، فقد تجاوزت تأثيرات الفكر اليوناني في التاريخ وغيره من المجالات نطاق اللغة اليونانية والجنس اليوناني. إلا أن المؤرخين الرومان كانوا متأخرين زمنياً عن نظرائهم اليونان وأقل عدداً منهم لذا ظل تاريخ روما حتى منتصف القرن (٢ ق.م) يدون من قبل المؤرخين اليونان بلغتهم اليونانية الى أن دون في سنة (١٦٠ ق.م) المؤرخ الروماني ماركوس بورسيوس كاتو الأكبر او كاتو الحكيم (٢٣٤-١٤٩ ق.م) كتابه (الاصول) الذي ارخ فيه لروما منذ تأسيسها سنة (٧٥١ ق.م) الا ان اول كتاب يعتد به الرومان كتب باللغة الرومانية من قبل مؤرخ روماني يوليوس قيصر الذي كان مؤرخاً وقائداً

عسكرياً الف كتاباً عن الحروب الغالية ظهر سنة (٥١ ق.م) واسمى هذا الكتاب بـ (ملاحظات)، تالف من سبعة اجزاء تضمنت ملاحظاته عن غزواته في بلاد الغال (فرنسا) وجرمانيا وبريطانيا تمكن خلالها من بسط نفوذ الامبراطورية الرومانية على اوروبا حتى المحيط الاطلسي وتضمن الكتاب السيرة الذاتية ليوليوس قيصر وتميز اسلوبه بالاختصار والوضوح والدقة في العرض والجادبية.

أما تيتوس ليفيوس او ليفي هو اخر المؤرخين الرومان الكبار، الف كتاب عرف بـ (التاريخ) ارخ فيه للدولة الرومانية منذ وفاة أغسطس وله مؤلفات في التاريخ والجغرافية وذكر في كتابه الانحطاط الاخلاقي والمظالم في قصور بعض الاباطرة الرومان مثل نيرون، وتحيز الى المعارضة في مجلس الشيوخ مما اخل بموضوعية التاريخ الذي كتبه وجعله مؤرخاً اخلاقياً وليس علمياً يسعى من خلال التاريخ الى ابراز الاثر الاخلاقي في توجيه الفرد والمجتمع، وهناك مجموعة من العوامل ادت الى تراجع التدوين التاريخي عند الرومان أهمها:

١. ظهور نوازع ذاتية ترى ان الرومان عنصراً متفوقاً على باقي الاجناس البشرية.
٢. كان عمل المؤرخين لا يتعدى جمع المعلومات من كتب التاريخ واعادة ترتيبها وكتابتها دون اخضاعها للنقد والتحليل.
٣. قيام رجال الدين بعد ظهور المسيحية واتخاذها الديانة الرسمية للدولة بتدوين التاريخ. فأفرغوه من مضامينه الدنيوية والعلمية ووظفوه لاغراض دينية وابرزهم في هذا المجال القديس جيروم مؤسس الكنيسة اللاتينية.

أن ما سبق لا يعني ان التاريخ لم يستند من سيطرة الفكر الديني المسيحي ففي اواخر عصر الرومان اصبحت النظرة الى التاريخ ذات افق اكثر رحابة بأعتباره من المبادئ الاساسية للديانة السماوية وركزت مواضعه على (البعث والحساب والحياة على الأرض والخلق)، ورؤيتها لمسيرة التاريخ البشري، وتمثلت هذه النظرة بما يمكن ان عده (فلسفة التاريخ) التي تستند الى اصول مسيحية صاغها القديس اوغسطين اشهر اباء الكنيسة اللاتينية في كتابه (مدينة الله) حاول فيه ان يتأمل مسيرة التاريخ البشري وفق الدين والفكر الديني ليفسر الواقع ويستشرف المستقبل.

